«حامد» «ما تبقى لكم» وبين ارتفاع مستوى الفعل الذي حققه «سعد» ورفاقه «ام سعد». انه زمن «خالد»، ابن سعيد س الذي يطمح في الانضمام إلى المقاومة.

البطل الغائب في هذه الرواية هو «بدر اللبدة» الذي كان أول من حمل السلاح في منطقة العجمي عام ١٩٤٧، والذي استشهد بعد ذلك بعدة شهور، فظلت صورته معلقة على حائط بيته بعد رحيل أهله عنه. وعلاقة شقيقه «فارس اللبدة» بصورة الشهيد، تبدو في البداية علاقة رومانسية... استعادة وهمية للبطولة الغائبة. فقد جاء هو الآخر إلى يافا من رام الله بعد احتلالها ليستعيد صورة أخيه، لكنه لم يأخذها، لانه اكتشف فيها فعلاً أكثر من علاقته الرومانسية بها. اكتشف انها جسر يربط بين الماضي والحاضر، وبين الفلسطيني الذي ظل على أرضه والآخر الذي في منفاه. عاد فارس إلى رام الله بدون الصورة، وهو «يحمل السلاح الآن» (ص ٣٩٣). فها هو البطل الغائب، يربط أيضاً جسراً بين الماضي والمستقبل.

اما سعيد س. الذي ما كان في يوم من الايام بطلاً، فانه يشهد اللحظة التي تُفَجِّر فيه البطولة. لا يحمل السلاح، ولكنه يأمل في ان يكون ابنه «خالد» قد حقق قراره، فينتهي الى القول: «ارجو ان يكون خالد قد ذهب... اثناء غيابنا» (ص ٤١٤).

ولعل بطل رواية «العاشق»، هو طموح غسان كنفاني في رسم ملامح البطل الملحمي في التاريخ الفلسطيني. وربما، لو قيض لهذه الرواية أن تنتهي، لاستطاعت أن ترسم بطلاً متميزاً، لا يكتسب تميزه من تفرده، وانما من قدرته على أن يتمثل بطولة امة.

ورغم عدم الاكتمال، إلا اننا نستطيع أن نميز بعض ملامح هذا البطل التاريخي الذي،رغم وجوده غائباً في الماضي، لا يطل علينا من ذاكرة فردية، وانما هو نسيج الذاكرة الجماعية للشعب التي تكسبه حضوراً يطغى على غيابه بين صفحات الماضي.

انه نموذج (البطل / الجماعة)، فهو لا ينعم بفرديته لحظة، حتى في أشد الأشياء فردية وخصوصية، اسمه. فلا ندري ما اسمه، لأننا عرفناه بأسماء والقاب كثيرة دون أن ندري أيا منها هو الاصل (قاسم، عبد الكريم، السجين ٣٦٢، العاشق، حسنين) فهو التعبير عن هؤلاء كلهم، وعن غيرهم، لأنه يمتص في داخله بطولة شعب بأسره ويعبر عن كوامنه.

يجيء حضور هذا البطل، منذ البداية، موسوماً بالغموض والسرية، ومترافقاً مع الدهشة والتساؤل:

«في البدء لم يعرف أحد في الغبسية كيف جاء قاسم اليها وسكن فيها،دخلها ذات يوم كما تدخلها الريح القادمة من الجبل وصار لتوه شيئاً من أشيائها الصغيرة ولكنه ابداً لم يستطع أن يكون من ناسها...» (ص ٤٢١).

رجل غريب خاص، يثير الغرابة لدى الآخرين. يبتعد عن الناس لكنه لا يغترب عنهم، لأنه في وحدته أشد التصاقاً اليهم، وهو في ابتعاده عنهم يدفع ضريبة التصاقه الأكثر بقضيتهم التي يدافع عنها.